الاباضية مذهب وسلوك

في الحقيقة إن الإباضية قد قصدت منذ نشأتها إلى تحرير الأرادة الإسلامية والفكر الإسلامي من التمزع والتفرع ، والتفسخ والتشرخ في شؤون الدنيا وفي أمور الدين ، وفي الوقت نفسه تكون قد قادت المسلمين إلى الهدف الجماعي الواحد ودفعت بهم إلى الطريق الصحيح الرحب . . .

الاباضية مذهب وسلوك(1)

بقلم : الشيخ السيد عبد الحافظ عبد ربه

﴿ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير﴾ .

ان دراسة الاباضية في عمومها وخصوصها ترينا النماذج الرائعة الحية من القضايا الاسلامية ، والمفاهيم العقيدية ، والتشريع الالهي في شتى مجالات الكون ، وفوق خريطة العالم ، وعلى مستوى الانسانية كلها ، بما تنصلح به الدنيا ويستقيم معه الواقع ، وتتضح عنده العقيدة ، ويثرى فائضه رصيد البشرية ويتراءى حصاده زاهيا رابيا في أجواء العقيدة ، وآفاق الدنيا ، ويبدأ من لدنه مشوار التاريخ ، وتنطلق من محوره حركات الحياة في ايقاع متسق منظوم ، وتوازن شيق منغوم ، ضرورة ان الاباضية على الحقيقة رمز للسلوك الاسلامي المهذب الذي يصح ان يقاس عليه سلوك المسلمين ، ويحتذي به أي مسلم أو عربي عبر الأمة الاسلامية والعربية ، ومن خلال الالف والسبعمائة مليون ممن يقولون « لا اله إلا الله محمد رسول الله » وممن ينطقون العربية ويلهجون بلغة القرآن الكريم .

لقد امتد نسب الاباضية الى النبي ﷺ ، واستقى معينه من كبار

---

(1)الشيخ السيد عبد الحافظ عبد ربه (مصري) ت : 1990 من علماء الأزهر المرموقين .

الصحابة ، وبالذات من حبر هذه الأمة وعالمها عبد الله ابن عباس الذي حمله في صدره وبشر به في أقضيته وفي فتياه ، والذي أجمع عليه وتزاحم في تشريعاته وأصوله وفقهه ومنهجه علماء الاسلام واساطينه من أمثال جابر بن زيد ، وأبي عبيدة مسلم التميمي وعبد الله بن اباض ومرداس بن حدير ، والربيع بن حبيب الفراهيدي ومحبوب بن الرحيل ، وطالب الحق أبي يحيى عبد الله بن يحيى ، وأبي حمزة المختار بن عوف ، وبلج بن عقبة الازدي ، وضام بن السائب العماني ، وغيرهم كثير وكثير من خيار هذه الأمة ، الذين قال الله تعالى فيهم وفي أمثالهم : (**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**) ..

وهكذا بدأت هوية هذا المذهب وملامحه ، وذاتيته وشخصيته تتكامل كائنا سويا في أعماق الدنيا ، وفي اغوار الحقيقة ، وفي وجدان الحياة منذ ان بدأ الاسلام أول خطواته فيها ، وآنئذ وضع قدمه هناك على الطريق القاصد ، وفوق هذه الأرض المباركة التي تنزل فيها وحي الله على رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ان اصالة المذهب الاباضي وصدارته لم تأت من فراغ ولم تنشأ هكذا اعتباطا ، بل هيأ القدر الطريق أمام هذا المذهب ، وأطاب له المناخ ، وأمشى في مسيرته النجاحات المواتية ، وشده في تقنينه وفقهه الى المتاحات الواعدة المستقبلية ، واعده اعدادا كاملا معنيا مرعيا كي يتمكن من قطع الشوط ، واكمال المشوار وتطويق آماده ، واقتحام احجامه وابعاده ، واداء رسالة اصلاحية ، استجنت واختبأت في ضميره ووجدانه ، وظل يحملها حقبا متطاولة من عمر الحياة ، حتى اذا شاء الله لها الظهور والولادة انفرجت عنها مشاعره واجتهاداته ، وجاءت الى العالم

في أسلوب من الوعي الجديد ، وصيغة واضحة وضاءة على يد عمالقة الفقه واساتذة التشريع وعلماء الاصلاح من رجال الاباضية الشوامخ الذين نذروا نفوسهم لله وباعوها ـ في سبيل ترشيد الانسانية ـ بيع السماح . أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

فهل يمكنني حينئذ أن أقول : ان المذهب الاباضي أيقظ حراس الاسلام والعروبة عبر آلاف السنين ، وعلى مدى الدهور والعصور بما فعله ـ وما سيفعله ـ نهوضا بالاسلام ومن أجل قضايا المسلمين ؟ .

في الحقيقة إن الاباضية قد قصدت منذ نشأتها الى تحرير الارادة الاسلامية والفكر الاسلامي من التنزع والتفرع ، والتفسخ والتشرخ في شئون الدنيا وفي أمور الدين ، وفي الوقت نفسه تكون قد قادت المسلمين الى الهدف الجماعي الواحد ودفعت بهم الى الطريق الصحيح اللاحب ، ومشت معهم في زحف مقدس ، وصف منتظم راكض الى حيث تكون الوحدة الاسلامية ، والفرقة الواحدة الناجية التي عناها الله في قوله لرسوله ﷺ : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) والتي ارتضاها النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وأخبر عنها حين قال : « افترقت المجوس على سبعين فرقة ، وافترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلهم في النار الا واحدة » ..

ان الاسلام قد مني ـ منذ سنواته الأولى ، وخطواته الطريفة ، أو بدءا من تعامله مع الحياة ، في عهد الخليفة الثالث ـ بالكثير جدا من الاضطرابات والفتن والكبير الخطير من البلايا والمحن حين تفرق المسلمون مزعا وشيعا ، وتنافروا اقساما وارقاما ، وكادت شأفتهم ان تنقضي ،

وعصاهم أن تنكسر وأمرهم أن ينتهي وينفض .. وزاد الطين بلة والقلب أوجاعا وعلة ، هذا الهجوم الزاحف والطوفان الخاطف الراجف ، والموج الهائل المتلاطم ، الذي جاء في معية هذا الفكر الغريب الوافد على البيئة الاسلامية والمتمثل في الفلسفة اليونانية والوثنيات الاغريقية ، والشطحات المجوسية الفارسية ، والمتاهات الزرادشتية والترهات المانوية ، والبوذية ، والبراهمية .

الى غير ذلك من الديانات الشرقية الوضعية ، والاباطيل والاضاليل التي نفثها الشيطان في ارواع أصحاب هذه الملل والنحل ، من احلاسه واتباعه وسدنته وأشياعه والمنفذين أمره والمنتهجين نهجه ، والسائرين على حداه وخطاه .. هذا الى جانب ما أثقل الأمر وقصم الظهر ، من الفرق الاسلامية العديدة ، والطوابير الطويلة المديدة ، التي أضعفت كيان العقيدة وأثقلت كاهل الدين ، بما ابتدع واتبع وبما احدثوه بينهم وتنازعوا عليه ، واختصوا فيه ، وتساقطوا عنده ضحايا وصرعى من مثل الاعتزال ، والمغالاة ، والجرأة واللامبالاة والتشيع والانحياز المتجسم المتضخم في المعتزلة وغلاة الخوارج والصفاتية والحوشية والمشبهة ، والقدرية والشيعة مع ما انشطرت اليه هذه الفرق والطوابير من فروع وتشكيلات ، ومذاهب ومناحى واتجاهات وأيضا مع ما اندرج ضمن هذه اللافتات وانضوى تحت لوائها من تسميات واسماء ومسميات بما تفوق العد وتتجاوز الثلاث والسبعين فرقة بكثير وكثير .. الأمر الذي يبهر العادين ويعجز الحاسبين .

ومن خلال كل هذه التراكمات والتناقضات . والاعداد والكيات وما يدور بينها ، ويحدث في صفوفها ، من نزاعات وخلافات وصدامات وانقسامات .. نرى تلك « الفرقة الناجية » وقد خرجت وحدها من وسط هذه المعمعة ، وجحيم تلك المعركة وهي تلوح باغصان الزيتون ، وفروع

الورد ، أو قد هيأتها الأباضية وادخرتها لمثل هذا اليوم ، ولتقوم ـ قادرة ماهرة ـ بهذا الدور البطولي البارع الذي يحفظ على المسلمين وحدتهم ويبقى على كيانهم ، ويصون لهم العقيدة والدين ...

وبعد هذا كله هل يمكنني أن أواجه ـ أو أجابه ـ المتشككين والمتشائمين من دعاة التفرقة المذهبية ، وأحلاس الهوى المغرض والمتشنجين ، والمتعصبين ، وغلاة العقيدة والخارجين على الجماعة ، والمتسوقين في بضاعة الدين والمترهلين عند بعض الفتاوى ، والجامدين على بعض الآراء من سماسرة القيل والقال وعملاء التميع والتمزق وكهان التفرق والتفسق وأصحاب هذا الفكر الجامد المعاند ؟

هل يمكنني أن أواجه ـ أو أجابه ـ أو أقول لكل هؤلاء وأولئك ، تلك هي انظف بقاع الدنيا ، وأطهرها وقد اعتنقت ذلك المذهب الاباضي الذي بعد بها ـ وبالعالم الاسلامي كله ـ عن هذه المتاهات ، وتلك الشقشقات والشنشنات التي دوخت البشر واتعبت الناس ، وآدت كاهل الكون ، وأثقلت عاتق الايام وزلزلت أوزعزعت كيان الوجود ؟ .

تلك هي الجزائر وتونس وليبيا والمملكة المغربية وحضرموت وعمان ودول الخليج وزنجبار وشمال وشرق افريقيا .. وعموما بعض الجيوب المصرية وبعض أطراف السعودية وقد تمذهبت كلها بمذهب « أهل الاستقامة » واعتقدته منهجا وطريقا ، وتفاعلت معه سبيلا وسلوكا ..

تلك هي تطلعات الاباضية في الماضي والحاضر والمستقبل اصالة وعراقة ، واملا وعملا ، وبناء وطموحات ، ونهضة ويقظة وامانة ونية ، ووثبة وهمة ، وذودا عن العروبة ، ودفعا عن الاسلام وحماية لقضايا

الشعوب والامم ووقوفا صادقا صامدا وانعطافا منحازا قاصدا مع كل مضطهد مغلوب أو عان مكروب أو يائس بائس ، يطحنه الذل ، ويضغه الظلم وتسحقه الحاجة ويرغمه الفقر ويقهره الهوان . ولا تفتأ التناقضات تلهب ظهره وتثقل اصره وتدق فوق رأسه بمطارق المعسكرات الدولية أو الانتماءات الحزبية أو التقوقعات الشعوبية أو الملاهي الشيطانية ، الصبيانية ، كما نرى ونشاهد ونسمع ونقرأ ، من كل ما يثير الغثيان ، ويغضب الانسان . يفر به ـ هاربا غاربا ـ الى الغابات أو ادغال المارستان .

ان العالم الاسلامي ـ وقد كانت تحكمه قوانين الاحتمالات وتشطره اختلافات الفقهاء ، وتمزقه المذاهب ، وتقطع أوصاله الاجتهادات فردية كانت أو جماعية ـ بدأ يسترد انفاسه اللاهثة ، وجهده المكدود ، وخطواته الراكضة اللاغبة ـ التي طالما امشاها على رؤوس الحراب ، وفي مفترق الطرق ـ في ظل هذه المؤسسة الوليدة الشرعية ، والتي انفرج عنها ، وتمخضها الفكر الاسلامي الصحيح المصفى ، الخالي من التعقيد والتعصب والمنبثق أصلا من المنبع الأساسي للعقيدة ، والمصدر المتفق عليه بين رجال القرآن والحديث ، ورواد الفقه والشريعة وأساتذة الدين والايمان والذي اعتمده الرسول صلوات الله وسلامه عليه بين أمته وجماعته مرجعا لهم وقانونا في قوله : « لقد تركت فيكم ، ما ان اتبعتموه لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي » .

أقول : لقد توحد العالم الاسلامي ، واستراحت أمته ، في ظل ، وفي رحاب مؤسسة ، أهل الاستقامة ، أو « الفرقة الناجية » أو « الجماعة » التي نعتها الله تعالى بالخيرية في قوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت

للناس) ، واعنى بها « الاباضية » مذهبا وسلوكا ، وسنة وطريقا ، وتعاملا وتداولا » .

وان المتتبع لسلوك هذه الطائفة ، وتناولها للدين وتعاملها معه ، ليدرك من أول وهلة ، ويعتقد يقينا انها الفرقة « الواحدة » ـ بين الفرق الثلاث والسبعين ـ التي ضمت جوانحها على الدين واستقبلته في صدرها ، ومارسته وتعاملت معه كاسلوب صحيح ، وصيغة وضيئة مضيئة ، ومن هنا لا عجب ان تمذهبت بها الحياة وأصدرت وأوردت كل شئونها الدينية والدنيوية من ثنايا ، ـ ومن خلال ـ ما نشير به وتدل عليه وتقف عنده ، وترشد اليه ، وتثق فيه .

هذا وان للمذهب فقهاءه وعلماءه الاجلاء الفضلاء ، الذين توافروا على استنباط احكامه . وتوضيح مسائله من الكتاب والسنة واجماع السلف الصالح ، والذين ربطوا ـ عن منهجه وبرنامجه ـ شئون الدنيا بشئون الدين وأطالوا يد الاسلام ـ بيضاء غراء ـ حتى التفت حول الأمة ، وأصابت كل شيء فيها بالتهذيب والتشذيب ، واحتضنتها ، وأحسنت اليها ، كما دفعت عنها ـ وطاردت ـ كل دخيل أو غريب أو متلصص عليها ، أو متسلل الى جواهرها ومكنوناتها ، اما بقصد السرقة ، أو التلبيس أو التدليس فيها وغشها ، أو العمل على نسفها تماما ..

ولست في حاجة الى الاسترسال الطويل في بيان ما افادته الحياة عن طريق الفكر الاباضي ، ولا سيا في العمل على جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد صفهم وانطلاقهم جميعا من مبدأ واحد ، والى غاية واحدة .

وها نحن اليوم نرى من آثار هذا التفكك المذهبي والطريقة التي نعبد الله عليها ، والطريق الذي نقطعه ونمشيه الى تعاليمه واداء واجباته ، ما يندى الجبين ويشيب الطفل ويذهل كل مرضعة عما ارضعت ، ويسكر

الناس ، ويدعو الى الأسى والأسف والفجيعة والمرارة ، فيا أصاب الدين . وفيا أصاب المتدينين من جراء ما غرقوا فيه الى الاذقان ، من هذه التشكيلات المذهبية والموديلات و « الشللية » .

لا شك ان هذا كله يمزق كيان الدين ، ويفتت وحدته ، ويقضي عليه ويمزق بالتالي كيان المسلمين المتدينين ويفتت قوتهم وتماسكهم ، ويقضي عليهم جميعا قضاءه المبرم ، ويفنيهم الفناء الذي لا قيامة بعده أبدا .

وهذا حتما من فعل الابالسة الخبثاء ، أو السذج البسطاء أو أعداء العقيدة والدين .

ولن يسترجع المسلمون مجدهم الغابر ، وأمسهم الدابر وقوتهم الذاهبة ، وشمسهم الغاربة ، الا بالاعتصام بحبل الله جميعا ، وأن لا يتفرقوا ، وأن يتحدوا فيا بينهم ، وان يتجمعوا في كنف اله واحد ويجتمعوا على عبادته ، وان لا يقلبوا وجوههم حائرين في الأرض أو في السماء ، وأن يلبسوا الياقات المنشاة القابضة التي لا تسمح لهم بالالتفات يمنة ولا يسرة وان يتركوا عبادة الاشخاص والهرولة الى « الايديولوجيات » التي صنعها أشرار الناس .

حينئذ ـ وحينئذ فقط ـ يمكن للسيرة الاسلامية أن تنطلق في ركب قوي ـ قوامه أكثر من ألف وسبعمائة مليون مسلم وعربي ـ الى غاياتها الضاربة في أعماق الحياة والذاهبة . تطلعاتها الى مأتيات السماء ـ (**قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره**) .

أقول : كان من اثر ذلك ـ أو كرد الفعل ، أو رجع الصدى لكل تلك الشيطانيات ، « والنجاتف ، لكل هذه الكرنفالات » ـ ان انعكست هذه الرؤية الكابية المعتمة ناطقة معبرة عن التزق الشامل الخانق ، والخراب

الداهم الخانق ، الذي أحاط بالأمة وأصابها في شتى مرافقها واجهزتها ومؤسساتها وفي حياتها السياسية بالذات ، ولا سيما ، وعلى الأخص المنطقة العربية - من الخليج الى المحيط - التي يعايشها ويواطنها أكثر من مائتي مليون عربي ، الأمر الذي أطمع فيهم الأعداء وأغرى بهم السفهاء وجرهم دائما الى الوراء والخلف وساقهم جميعا - وأبدا - الى الهلاك والحتف .. وشد الأمة الى ما الله به عليم .. فكثرت فيها الطوائف والنحل وتهاوت في مستنقعاتها « المجموعات » و « الشلل » وتناوح بين أطلالها الخراب ، وتنازعتها « الهيآت » و « الاحزاب » .

وهل يعقل يا قوم أن يتقاتل الاخوان ، أو يتقابل الشقيقان في معركة أو يختلف أهل البيت الواحد فيا بينهم أو أن ينشغلوا جميعا عن أمرهم ، حتى يتسلل اليهم العدو ويمزق كيانهم ، ويقضي فيهم قضاءه ، ويعمل جاهدا على محو معتقدهم وشطب دينهم ، ومسحهم كلهم من فوق خريطة الوجود ، وجغرافية الحياة ، كما نرى اليوم ونعايش هذه الأحداث المروعة ، في افغانستان وباكستان ، واندونيسيا وماليزيا ، وبلغاريا ، والهند وفي أطراف افريقيا وفي بعض الجيوب الاسيوية ، وخاصة في فلسطين ولبنان ، وفي الجبل وفي الجولان ؟ .. معارك في المغرب وفي الصحراء الغربية معارك في ليبيا وفي تشاد وفي جنوب السودان .. تحرشات ضارية بين سوريا والعراق .. والعراق وايران .. والاكراد والاتراك .. وكلهم مسلمون واخجلاه !!

ولا شك ان من وراء هذا كله الاستعمار الكافر اللئيم ، من وراء هذا الصهيونية والشيوعية والصليبية والرأسمالية وكل من ينتمي الى هذا الطابور الغادر .. وواويلتاه وواسلاماه وواعروبتاه من كل هذا الذي أصاب المسلمين والعرب ، ومن كل

خطر راصد متربص ، مرتقب ، يجريه العدو المستعمر هنا وهناك في كل اصقاع الأمة ، وفي كل بقاع العروبة وديار الاسلام ..

واويلتاه لهذه الأمة التي فجرت الأحداث جراحها ، ومزقت الاختلافات أوصالها ، وتآمر عليها بعض ابنائها من محترفي السياسة وعشاق الزعامة ومدمني اللعبات الصبيانية والمكائد الشيطانية ومن كل من يساوم على عرضه ، وأرضه ووطنه بالجاه أو المنصب أو المال !!

ان العدو قد وضع في خطته ، ورصد في مفكرته ، ورسم في استراتيجيته وسجل في موسوعته ـ منذ أن بدأ المشوار مع العرب والمسلمين ـ كل هذه النتؤات ، والكأداءات في طريق المسيرة العربية المسلمة حتى تتعطل المسيرة ويتخلف العرب والمسلمون .. ودائما لا سلاح امضى واعمل في مثل هذه المعركة ـ يستعمله العدو ويبارز به ـ الا سلاح الشحناء والبغضاء والتدابر والتناكر ، الذي هب على الصف العربي والاسلامي بفعل هذا العدو ـ والذي عصفت به أعاصيره ، فشرخ جدرانه وحطم أركانه ، ومزق بنيانه وأتى على قواعده من الأساس وحتى أصبحت الأمة العربية وبعض الدول الاسلامية أشبه بالاطلال والخرائب . التي يعيش فيها البوم . وتعايشها الوطاويط والخفافيش . والغربان والذؤبان وكل ما له ظفر وناب أو مخلب . أو « فك مفترس » .

وما البوم . والوطاويط والخفافيش . والغربان والذؤبان ومن له الظفر ، والناب والمخلب والفك المفترس الا هؤلاء الذين يتقاسمون هذه الأمة ، وهم مع الأسف من أبنائها ويتنازعونها فيما بينهم .. وكان الاجدر بهم جميعا أن يدافعوا عنها كما يحرص كل من هذه الوحوش المتناوشة

المتهارشة والكواسر الضوارى ، على أن يهبر من هذه الأمة هبرة ، أو ينتزع منها بضعة أو يأخذ قطعة أو مضغة أو لقمة ، يسد بها جوفه النهم ويملأ بها كرشه الشره ، ويحشى بها بطنه الضخم المترهل الذي يقول دائما بقولة جهنم ، (هل من مزيد) ؟ ..

يا أيها المسلمون ، ويا أيها العرب ماذا بقى لكم بعد ذلك ؟

يا أيها المسلمون .. لقد خدعكم العدو عن أنفسكم وعن ماضيكم وعن تاريخكم وعن اسلامكم . وعن عروبتكم ..

انساكم انكم اتباع محمد ، واشياع أبي بكر وعمر ، وتلامذة عبد الله بن عباس ، وجابر بن زيد ، وعبد الله بن اباض واجناد خالد بن الوليد ، وابناء هؤلاء الاصحاب : معاذ بن أنس وعمار بن ياسر ، واسيد بن خضير ، وانس بن قتادة وأوس بن ثابت ، وإياس بن زيد ، والحباب بن المنذر ، وحوشب بن طحية وخارجة بن أبي زهير ، وخراش بن الصمة ، ورافع بن مالك ورفاعة بن رافع ، وزيد بن أرقم ، وزيد بن حارثة والطفيل بن مالك ، ومحمد بن سلمة ، ومعاذ بن جبل ، ومعن بن عدى ونوفل بن الحارث ، والنعمان بن بشير وعبد الله بن غرفطة وقبيصة بن ذؤيب ، وسعد بن عبادة ، وسفيان بن بشر ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وغير هؤلاء من الأفاضل الاخيار ، والصحابة الابرار الذين لفتوا وجه الدهر وغيروا مجرى المسيرة ، وفجروا ينابيع الخير في ربوع هذه الحياة .

يا أيها المسلمون في كل مكان .. أفيقوا من نومتكم واستيقظوا من سباتكم الذي تغطون فيه غطيط أهل الكهف وتنبهوا الى هذا العدو الشرس اللئيم الذي يزرع بين صفوفكم كل بذور الفرقة ، وكل أنواع العداوة ، وكل أصناف التحاسد والتحاقد ، ثم أخيرا يغرى بعضكم ببعض ، ويشعلها - بأيديكم أنتم - حربا ضروسا ، وغارات شعواء لا تبقى ولا تذر ..

والا .. فخبروني بربكم : ما هذه المعارك الدائرة الجائرة بين العراق وايران ؟

ما هذه المعارك والمحارب التي تتراقص عاصفة بين المسلمين بعضهم ضد بعض ؟

من الذي أشعل فتيلها ، وأوقد نارها ، وانتزع منها ذراع الامان لتنطلق على الأمة الاسلامية جبارة غدارة هكذا ؟ .

ان اعداء الاسلام والمسلمين هم من وراء كل ذلك .. وفي مقدمتهم الشيوعية والصهيونية ومن لف لفها ، ودار في أفلاكها .

ان الشيوعية والصهيونية هما المعسكران اللذان فتنا المسلمين والعرب ، واغريا بعضها ببعض ، وحرضا ، أو سلطا البعض على البعض لجملة أسباب .. ومن أهمها :

1) الحقد على الاسلام والمسلمين ، والعرب والعروبة فالشيوعية لا دينية والصهيونية كافرة .

2) اقامة سوق للسلاح ، يتاجر فيه كل من المعسكرين على حساب الأمة الاسلامية ، والأمة العربية ، فالشيوعية والصهيونية تكسبان المليارات والمسلمون والعرب يخسرون ملايين الأرواح وملايين المليارات من الأموال .

3) التخطيط السافر ـ أو الملثم المقنع ـ للاستيلاء على مصادر النفط في حقول الاسلام والعروبة ، وصرفِ ـ أو طرد ـ المسلمين والعرب عنها ، سواء كانوا ايرانيين أو عراقيين أو خليجيين أو عربا على العموم أو مسلمين عامة .

هل كان يمكن للشيوعية أن تضرب الافغان وتقتحم عليهم بيوتهم لولا العزلة والفرقة والغربة التي يعيشها المسلمون ؟ .

هل كان يمكن للشيوعية أن تقيم القواعد والترسانات في الوطن

الاسلامي لتتجمع فيها . وتضرب منها الاسلام . لولا تخادل المسلمين وتفرقهم ؟

لعلكم أيها المسلمون قد أصابكم الترهل والاسترخاء حتى طمع فيكم العدو ، وكرهكم الصديق . على الرغم من كثرتكم وألف وخمسمائة مليونكم اضافة الى مائتي مليون عربي حتى صدقت فيكم نبوءة الرسول ﷺ في قوله :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على القصاع قالوا : أو من قلة فينا يا رسول الله ؟ قال : لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله مهابتكم من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكراهية الموت والجهاد » .

وأنتم أيها العرب في كل مكان :

يا أبناء عمان ويعرب ، يا أبناء ربيعة ومضر ، يا أبناء الغوث بن مالك بن يزيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام .

يا أبناء الازدزينة الدنيا ، وفخر الزمان ، يا أبناء العباقرة العباهلة ، والاقيال الصيد ، والغر البهاليل والابطال الميامين نظرة متأنية الى تاريخ أسلافكم واجدادكم ورجعة الى الماضي لاستيعاب مفاخركم وامجادكم ، ووقفة مع العالقة الشوامخ من آبائكم وأجدادكم الذين نثروا مكارم العرب ، ورفعوا فضائل العروبة عالية خفاقة فوق كل الاعلام . وعلى مر الدهور والاعوام .

أيها العرب ، ماذا عساه يقول عنكم الآباء والاجداد ؟ ما عساهم يقولون عنكم اليوم ، وبأي لغة يقولون ، وما عساكم تعتذرون اليهم عن تفرقكم وتمزقكم وضياعكم هكذا أوزاعا واتباعا واصفارا واصفارا ؟

وهكذا تعاون الذهول العربي ، مع التربص اليهودي والصليبي

مع ضغائن الدول الكبرى من مثل امريكا وروسيا ، أو الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

من أجل هذا كله ـ وحفاظا على العروبة والاسلام ـ حملت الاباضية فوق كتفها قضية القوم جميعا ، مسلمين وعربا وحملتهم على الالتزام بالمحبة واحترام أبعاد الجادة ، وحمتهم من التردي والهاوية واجتازت بهم هذا الطريق الحوري الصعب والمنعطف التاريخي الهادر ، الذي يشد الى دواماته ويبتلع في لهاته ومتاهاته من لم يلتزم بقواعد المرور ، ومن لم يخش عاقبة الأمور .. وذلك بمخالفة الدين واتباع الشياطين .

ومن هنا فإن الأمم التي احتضنت الاباضية لم تزل وستظل تلح على انجاز ما خطته وانفاذ ما رسمته . واكمال ما بدأته وخططت له ، وذلك عن طريق العقيدة والسلوك المنهجي المتوائم مع المذهب الصحيح الذي تتراءى بين أبعاده وتتضح في نطاقه وآماده صور الحياة الاسلامية الكريمة التي أدرك بها السابقون الشوط والشأو ، وحقق بها اللاحقون ، الرجاء المنشود والأمل الحلو ، واعنى بهذا المذهب « مذهب الاباضية » الذين تناولوا به الدين في سهولة ويسر ، وتعاملوا معه بطول نفس ، ورحابة صدر ، وتعاطوه برنامج عمل يقطعون به مفازات الحياة وصحراءها ، في حراسة الدين ورعاية العقيدة وعناية ساهرة يقظى من تعاليم الاسلام فلم يتشددوا ولم يتعصبوا ولم يغالوا ولم يغرقوا ، وكذلك لم يفرطوا في معتقدهم أو يتناولوه بضعف أو يتعاطوه بميوعة واسفاف وانما كانوا بين ذلك قواما .

فلقد استنبطوا مذهبهم من القرآن الكريم ، واقتبسوه من السنة المطهرة ، وسلكوا في مسيرتهم الى عبادة الله نفس الطريق

التي سلكها الصحابة وارتضاها الاجماع ، وحرصوا كل الحرص على أن تكون خطواتهم على ذات الدرب ، وفي نفس الطريق وفوق (إفْريز) الشارع ومع السبيل التي قطعها الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، في مشواره الطويل وشوطه البعيد ، جيئة وذهوبا ، على مدى مسيرته المباركة ورسالته الميمونة عبر الثلاثة والعشرين عاما ، ومع تحريهم الصدق وانتهاج الحق ، ومجاهدة النفس ، وريادة المعاناة والرياضة والترويض على المشقة والمقاساة ، حتى استبان لهم الأمر ، ووضح أمامهم الطريق . وتبين للعالم أجمع ـ أو المخلصين المنصفين ـ أن هؤلاء هم « أهل الاستقامة » أو هم في الواقع ـ وعلى الحقيقة ـ « الفرقة الناجية » التي أخبر عنها الصادق المعصوم والتي أمر الله رسوله أن يختارها وينتهجها سبيلا يوصل الى عبادته ومرضاته في قوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) .

والمذهب الاباضي ، ليس عجيبا في الدنيا ، ولا غريبا عن الحياة وانما هو العملة الصحيحة التي يجب تداولها وتناولها والتعامل بها في شتى الأنحاء ، وفي جميع المناخات والاجواء وهي بعون الله عملة لا ينالها التزييف أو التلبيس ولا يطولها الوضع أو التدليس ، ولا يجوز في منطقها العمل بين بين ولا التنكر في وجهين ولا المشي على الحبلين ، فالحق عندها واحد لا يتجزأ وكل لا يتوزع .

وحينما أشبل المسلمون الامناء والاتقياء الاوفياء ـ بعطفهم السابغ ورعايتهم اليقظى ـ على تعاليم هذا المذهب وأوصوا باستراريته وحمايته ، كان من شأنهم في هذا كله ، أن يحيطوا هذه المؤسسة الشرعية بكل أسباب

الرعاية والعناية وأن يحرسوها بكافة الضمانات والوقايات ، حتى تعشوشب افرعها وتطول اذرعها وتمرع اغصانها وتشتد سوقها ، ويتكاثف ظلها وتنضج خيراتها وثمارها فيستظل بها الحران ، ويأكل منها الجوعان ويشرب من زلالها وسلسبيلها كل عاطش اسوان ويخلد الى تعاليمها وآدابها ، ومذهبيتها ، واستاذيتها كل تائه أو ضال أو حيران في بيداء هذه الحياة وفي صحرائها الشاسعة الواسعة ..

ان الاسلام في تشريعاته ، انما جاء لتنظيم حياة البشر حتى يستحقوا أن يكونوا خلفاء الله في الأرض ، فنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق . وبين المخلوقات بعضها مع بعض ونظمها علاقة أكيدة بين الانسان وربه ، وبين الانسان ونفسه وراعى جانب المادة كما راعى جانب الروح وأسهم باسهاب في تنظيم حياة الناس في العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج ونظم حياتهم كذلك في المعاملات من بيع وشراء ، وسلم وقرض وشفعة ومزارعة واجارة وهبة ووصية ونذر ووقف ، وتوريث وحدود وزواج وطلاق ، وعتق وتدبير ، وقصاص ودية ، كما أشرف على بواعث ودواعى العمل لدى الانسان في سلوكه واخلاقه وقوى فيه جوانب الخير وزجر عنده غيلان الشر ، وجعل المسلم أخا المسلم لا يخذله ولا يظلمه ولا يسلمه . وحضه على أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وأكد على حتمية ازالة أسباب العداوة والبغضاء ، والشحناء بين أبناء الأمة الاسلامية ، ودعا المسلمين جميعا الى كفالة الفرد ، وان الفرد في ذمة الجميع وانه لبنة في كيان الأمة وان الأمة هي الفرد الدائر المتكرر .

كل ذلك من أساسيات الاباضية ضرورة انها هي الدين الصحيح في اعلا أطواره . وأبهى مراحله وأدواره ، وانها قامت في الحقيقة على تبني تلك الفضائل العبادية والمعاملية والسلوكية عموما والعمل على ترجمتها سلوكا

وعملا وتطبيقا وفعلا .

الاباضية تدعو الى التمسك بكل ما جاء به الاسلام من مثل واخلاق ، وقيم ومبادىء واخلاقيات ومناهج ، تدعو الى الاسلوب الامثل ، والحوار الافضل ، والملاينة في الجدل والنقاش للوصول الى الحق والصواب ، تدعو الى طاعة الحاكم وعدم الخروج عليه بأي حال من الاحوال إلا إذا عصى الله بالفعل أو بالاقرار فيجب نصحه وتوجيهه فقط لا غير .. خوف الفتنة والاضطرابات .

والاباضية دائما تهيىء المسلم بأن يكون مع الله في معاملاته وعباداته ، في الجامع وفي الشارع ، في الحقل والمصنع ، في المتجر والمعمل ، في المعهد والمدرسة والجامعة ـ وحده أو مع الناس ـ في كل حركاته وسكناته ... تدعو الى مجتمع نظيف شريف ، نزيه عفيف يكره الفوضى والديماجوجية ، تسوده المحبة ويظلله التراحم ، يمقت الغش ، ويثور على الرشوة ، ويجرم المحتكر ويحاكم المتجر المتحكم في أقوات الناس وفي ضرورياتهم . الاباضية هي كل هذا وأكثر من هذا .. هي الفيصل والحكم الذي يبدى الرأي واضحا في معارك المسلمين ومشاكلهم ، هي الترجمة الأمينة الصادقة لسلوك النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وأصحابه الأئمة الهداة المهديين .. هي عودة بالمسلمين من جديد الى عهد النبوة الأول في صدر الاسلام ونضارته .. هي اذابة الفرد المسلم في ألف وسبعمائة مليون مسلم ، وهي بالتالي اذابة هذه الملايين الحاشدة الهائلة في الفرد الواحد المسلم ، بحضانته ورعايته وكفايته وكفالته .

هي الحقيقة سافرة ، والعقيدة ناهية آمرة ، لا تجامل على حساب

الدين ، ولا تداهن أو تـجامل ، بل تجاهر بالحق صادعا وبالشرع وفقهه ناصحا وازعا ، وتخاطب الناس جميعا على حد سواء لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وتابع ومتبوع ، وسيد ومسود لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى ، والعمل الصالح ، ومن هنا عاداها أراذل القوم والسفهاء من الناس تماما كما عادى الكفار أصحاب الرسالات والنبوات في كل زمان ومكان .. ذلك لانها كشفت عن سؤاتهم وسيئاتهم وفضحت عورتهم وسحبت البساط من تحت أقدامهم لا سيما الحكام والقائمين على الأمور ، حين أرتهم للرائين المشاهدين حكاما من « كرتون » وقائمين على الابتزاز والاكتناز وخطف اللقيمات من أفواه المحكومين ، ولقد عانت الاباضية من كل هؤلاء ما عانت عبر مسيرتها الأميدة البعيدة . وعلى مدى الأشواط الطويلة الضاربة في أعماق السنين وفي أغوار الماضي والتاريخ حتى يومنا هذا !!

عادوها لأنها تجهر بكلمة الحق وتنطق بالصواب ولا تحب الجهر بالسوء من القول ..

عادوها لانها تريد أن تطبق شرع الله وتحقق المفاهيم الاسلامية الصحيحة .

عادوها لانها تعالج كل الأمور بموضوعية صادقة بعيدا عن التهريج والهوى والاسفاف ..

عادوها لأنها تعمل جاهدة على تأكيد العدل والتبشير به بقدر ما تحارب الظلم والظالمين .. وسامح الله أصحاب بعض المذاهب الأخرى الذين انضووا تحت الوية الحكام الباطشين فقالوا بمقولاتهم ، واتهموا الاباضية كما اتهمها هؤلاء وشنعوا على أتباعها وأنصارها بأنهم من الخوارج المغالين والصقوا بهم كل النقائص

والمثالب ، تقربا الى اسيادهم وارباب نعمتهم الذين سلطوهم - جبارين ظالمين - على هؤلاء الاخيار الابرار وعلى مذهبهم الاباضي الذي أعاد للاذهان عهد النبوة والصحابة ، وأرانا صورا صادقة للاسلام في مرحلته الاولى على يد محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ايدى رجاله الملتفين حوله ، المناصرين له والذين قال الله فيه وفيهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود) .

لقد شرق هذا المذهب وغرب ، وشمال وجنب ، وكان من السابقين الاوائل الذين نشروا الدعوة الاباضية وبشروا بها في الشمال الافريقي - في كل من الجزائر وتونس وليبيا والمملكة المغربية - الامام سلمة بن سعد الحضرمي الذي شوق بربر المغرب الى شد الرحال ، والتوجه الى المشرق لتلقى علوم المذهب من الامام ابي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وتبعه كذلك كل من الائمة عاصم السدراتي ، واسماعيل بن درار الغدامسي ، وابي داود القبلي النفزاوي وعبد الرحمن بن رستم الذي أسس الخلافة الاباضية - فيما بعد - بتيهرت ، ومن قبل هؤلاء العالقة حملة العلم ورواد المذهب ظهر في عهد مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية ، الحارث وعبد الجبار زعيما الاباضية في عهدهما واللذان حاربا عامل طرابلس الاموي واستوليا على المدينة بعد هزيمته . وفي سنة 140 هـ . وبعد استشهاد الامامين السابقين - بايع الاباضيون أبا الخطاب عبد الأعلى ابن السمح الذي حارب العباسيين وانتصر عليهم في بعض معاركه معهم ، وفي سنة 154 هـ بويع الامام أبو حاتم يعقوب بن حبيب والتف حوله أتباع المذهب الاباضي من جميع أنحاء شمال افريقيا وبالاخص أهل الجزائر وامتد سلطانه شرقا الى برقة ، وغربا

الى القيروان ، وجنوبا الى فزان وحارب العباسيين وهزمهم في معارك كثيرة ، الا انهم أحاطوا به أخيرا في جبال نفوسه وقتلوه مع ما تبقى من جيشه قريبا من ظاهر القلعة وككلة ، وذهب الى رضوان الله شهيد الحق والواجب !!

ان اباضية اليوم في المغرب العربي يسكنون جبل نفوسة وزوارة من طرابلس ، وجزيرة جربة من تونس ووادي ميزاب بالجزائر كما ان للاباضية كذلك ثقلا كبيرا في جمهورية مستقلة ببلاد القوقاز ، هذا الى جانب الأعداد الضخمة من اتباع المذهب بجزائر افريقيا الشرقية . وأيضا في جزر زنجبار وفي الخليج العربي وحضرموت ، هذا خلاف الملايين الاباضية في عمان ، اما في مصر وفي السعودية وفي العراق ، وفي بعض البلاد الاوربية فللاباضية فيها كذلك رحلات واقامات ووصايا وتعاليم وانصار واشياع .. أو ليست الاباضية هي مذهب الفطرة النقية البيضاء ، والجبلة الصافية البهاء ؟

(صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) .

واني لأعجب لعلماء المسلمين - ولا سيما علماء الازهر والزيتونة والقيروان ، والجامعة الاسلامية والجامعات والمعاهد المتخصصة في دراسات الاسلام ، من تجاهل هؤلاء جميعا هذا المذهب النقي التقي الذكي ؟ كيف طاوعتهم قلوبهم وعقولهم في أن يحجموا أو يتلكأوا عن الاسراع هرولة الى رحاب الاباضية ، والاستمتاع بما فيها من فقه وتشريع وأصول واستنباط ، وتبصرة حقيقية بالدين ، وتوعية مستوعبة لكل أفراد المسلمين ؟ كيف بهم لم يسهموا في نشر روائع هذا المذهب ولم يشاركوا في التبشير به ، والالتزام بمنهجه ومشربه ؟ انهم ان

استوعبوه وادركوا بركاته وخيراته ثم تقاعسوا عن نصرته ، يكونون مقصرين في أمر الدعوة ، وتسقط عنهم حصانة العلم وأهلية العلماء وان لم يستوعبوا المذهب بالمرة ، ولم يقدروا على الاحاطة به واستقطابه وتغشى عيونهم عن أبصاره والتطلع اليه ، يكونون قد خيبوا أمل الناس فيهم ولم يعودوا العلماء بل يصبحون الجهلاء وسيكون جهلهم حتما وحينئذ « جهلا مركبا » ويصدق فيهم ـ أو عليهم ـ قول القائل : «إن كنت لا تدري فتلك مصيبة ، أو كنت تدري فالمصيبة أعظم» .

ان الاباضية على الوجه الصحيح هي الرؤية الواضحة لصفاء الاسلام ونقائه ، وهي كذلك ابجدية الدين ، والمدخل الى العقيدة وبالتالي فهي العقل المطلق الكلي الذي يستشار في أصعب المشكلات دينية كانت أو دنيوية ، لأنه أقوى من المشكلات ، ولأنه يطوق المشكلات ثم يقتحمها ويفض اشتباكها ويحلها حلا سليما متكاملا ترضى عنه جميع الأطراف بقناعة وايمان ويقين .

ولقد كانت الامامة في المذهب ـ على مستوى العالم الاباضي كله من مشرقه الى مغربه ومن شماله الى جنوبه ـ تقوم مقام الخلافة في صدر الاسلام والعصور التالية في الاجراءات والمضمون وفي جمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم ، وتقوية جبهاتهم الداخلية والخارجية ، يصدرون عنها ، ويقيسون عليها ، ويعيشون في رحابها ، ويمارسون من خلالها شئون الدنيا والدين .. وكان الامام على الحقيقة هو الخليفة الراشد .. وما زالت هذه الخلافة أو الامامة تنتقل من عصر الى عصر بدءا من الامام جابر بن زيد حتى القت بمقاليدها اليوم طائعة مختارة ـ عن طريق العلماء الأفاضل

والزعماء المصلحين والأمراء النابهين من أهل الحل والربط ـ الى الامام الجليل والعالم الفذ ، والعبقري النابغة ورجل المواقف والمكرمات غالب بن علي بن هلال الهنائي ، الذي حورب واضطهد ، وضيق عليه ، وامتحن ، الا أنه صبر وصابر ، ورابط وثابر في سبيل عقيدته ، ومن أجل دعوته وامامته ، شد الله أزره وقوى ظهره ، وأظهر أمره (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون) .

وأما أنتم أيها الاباضيون ـ في كل زمان ومكان في المغرب العربي وفي مشرقه ، وفي افريقيا ، وفي آسيا ، وفي كل بلد يذكر فيه اسم الله ، ويتهادى الآذان من فوق مآذنه ومنابره ـ أيها الاباضيون .. (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .. (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون) . وسلام الله عليكم يوم ولدتم وعشتم ، ويوم تموتون ، ويوم تبعثون احياء شهداء في جنة عرضها الأرض والسماء ، وفي مقاعد الصدق والحق عند مليك مقتدر ..

السيد عبد الحافظ عبد ربه

من علماء الأزهر